

الإقصاء في الرواية الجزائرية: المفهوم والأشكال والأبعاد

Exclusion in the Algerian novel: concept - forms and dimensions

مولدي بشينية*

جامعة الشاذلي بن جديد بالطارف

مخبر التراث والدراسات اللسانية

bechinia-mouldi@univ-eltarf.dz

تاريخ القبول: ٢٠٢٤/٠٥/٠٨.

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٤/٠٤/٠٧.

النشر: ٢٠٢٤/٠٧/١٨.

ملخص: تُعدُّ كلمة الإقصاء من أكثر الكلمات استهلاكاً في مجتمعات العالم الثالث؛ سواء على مستوى الخطاب العادي أو على مستوى الخطاب الإبداعي؛ خاصة إذا ما تعلّق الأمر بالنضال من أجل الحصول على الحقوق أو انتقاد السلطة الحاكمة أو التبرّم من امتيازات الطبقات الأكثر ثراءً أو خلال التعبير عن الظلم والتمييز والدونية. غير أن الكلمة ذاتها، تصبح أقلّ الكلمات استعمالاً على مستوى الإعلام الرسمي للعالم ذاته أو لدى حاكميه و مفكره أو على مستوى خطابه النقدي الروائي بالتحديد. ومن أجل مقارنة موضوع الإقصاء الروائي سوسيونصياً، جاء هذا المقال ليحدّد مفهومه وأشكاله وأبعاد حضوره في نماذج روائية جزائرية مختارة بعناية وموزّعة بين أطوار الرواية الجزائرية المختلفة. وقد وصل البحث إلى مجموعة من النتائج أهمّها أنّ للإقصاء مفهومًا وأشكالاً مختلفة في النصوص الروائية المختارة وأنّ مقارنته سوسيونصياً، تُفيد في فهم وتحديد أبعاده الفنية والمعرفية.

الكلمات المفتاحية: إقصاء؛ رواية؛ جزائرية؛ مفهوم؛ أشكال؛ أبعاد.

Abstract: The word exclusion is one of the most used words in third world societies. Whether at the level of ordinary discourse or at the level of creative discourse; Especially when it comes to struggling to obtain rights, criticizing the ruling authority, disavowing the privileges of the wealthier classes, or expressing injustice, marginalization, discrimination, and inferiority. However, the word itself becomes the least used word at the level of the official media of the world itself, or among its rulers and thinkers, or at the level of its critical narrative discourse in particular. In order to approach the topic of sociological novelist exclusion, this article came to define its concept, forms, and dimensions of its presence in carefully selected Algerian novelist models and distributed among the different phases of the Algerian novel. The research reached a set of results, the most important of which is that exclusion has different concepts and forms in the selected novel texts and that its sociological approach is useful in understanding and defining its artistic and cognitive dimensions contribution.

KeyWords: Exclusion; Algerian; novel; concept; forms; dimensions.

المقدمة: إنّ مقارنة الإقصاء في الدرس النقدي الروائي الجزائري من المقاربات التي يصعب أن نجدها بسهولة؛ رغم أنّ الإقصاء من أكثر الموضوعات تداولاً على مستوى الخطاب الإبداعي عموماً والروائي بشكل خاصّ. ومن أجل لفت انتباه الدارسين إلى موضوع الإقصاء في الرواية، جاء هذا البحث الذي يروم مقارنة مفهومه وأشكاله وأبعاده في نماذج روائية جزائرية مكتوبة باللغة العربية بالتحديد.

وقد حرص البحث أن تكون النماذج الروائية المختارة للدراسة موزعة على مختلف أطوار الرواية الجزائرية. وهذا يعني أنّ البحث يفترض أنّ الإقصاء يحضر في تلك النماذج رغم اختلاف أطوارها ممّا يجعل دراسته أمراً مشروعاً. بيد أنّ الدراسة تستمدّ مشروعيتها بالأساس، من ملاحظة مفادها أنّ الإقصاء يحضر في روايات جزائرية كثيرة؛ حتى غدا الناظم الرئيس لمختلف برامجها السردية والضابط الأبرز لحركات شخصياتها.

وتأسيساً على الفرضية الواردة في الفقرة السابقة، يُصبح هذا البحث مُلزماً منهجياً على الاتكاء على المنهج السوسيونصّي وعلى المناهج والمعارف البيئية العاضدة له لمقاربة الإقصاء في الروايات المختارة، ومُلزماً إجرائياً على وضع خطة تُراعي بالأساس تحديد أشكاله المختلفة في الروايات ثمّ استقصاء أبعاده الفنية والمعرفية فيها.

ولكن قبل أن نبحث عن أشكال الإقصاء في مجتمعات النصوص الروائية المنتقاة ودلالات اشتغال الروائيين عليه، وقبل أن نتفحص أبعاد ورهانات تناولهم له في نصوصهم وعلاقة ذلك بالمتلقي وبالمحيط المنتج، يجدر بنا أولاً أن نُحدّد مفهوم مصطلح الإقصاء في المنجر الفكري عموماً وفي الدرس النقدي الحديث والمعاصر بشكل خاصّ.

I. مفهوم مصطلح الإقصاء:

الإقصاء في اللغة العربية عكس التقريب أو الإدماج: أقصى الشيء أي أبعده، والقاصي بعكس الداني. وقد قال تعالى: "فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا" (القرآن الكريم، مريم، ٢٢)؛ أي في مكان بعيد. وقال تعالى أيضاً: "وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى" (القرآن الكريم، القصص، ٢٠)؛ أي من طرف بعيد عن مركز المدينة. نستفيد ممّا سبق ذكره أنّ معنى الإقصاء هو الإبعاد وأنّه يحمل عدّة دلالات منها: تجاهل الشيء أو أبعاده أو القضاء عليه أو عدم الاعتراف به وبوجوده. وعادة ما يتّصف الموقفي بالأناية والنجسية وحب الذات.

وترد كلمة "إقصاء" في اللغة الفرنسية باسم *exclusion*، وتعني في (قاموس لاروس، ٢٠٣٢): *Action d'exclure d'un groupe, d'une action, d'un lieu, de chasser d'écarter.* Synonymes: *élimination - excommunication - expulsion - radiation - renvoi - révocation.* Contraires: *admission - intégration.*

والحقيقة هي أنّ كلمة "إقصاء" من أكثر الكلمات استهلاكا في مجتمعات العالم الثالث؛ وذلك سواء على المستوى الفردي أو على المستوى العام؛ خاصة إذا ما تعلّق الأمر بالنضال من أجل الحصول على الحقوق أو انتقاد

السلطة الحاكمة أو التبرّم من امتيازات الطبقات الأكثر ثراء أو خلال التعبير عن الظلم والتمهيش والتمييز والدونية. وبالمقابل، نجد أنّ الكلمة ذاتها من أقلّ الكلمات استعمالاً على مستوى الإعلام الرسمي للعالم ذاته أو لدى حاكميه وباحثيه ومفكره ونقّاده (يوسف هرمة، ٢٠٢١م، مقال إلكتروني).

والإقصاء ليس حكراً على مجتمعات العالم الثالث في الحقيقة؛ فالمجتمعات البشرية منذ نشأتها لم تتجرّع مرارة فعل بشري مثل المرارة التي تجرّعها من فعل الإقصاء. فكلّ الخطابات التي صورتها تؤكد بأنّه فعلٌ رافق البشرية ولا يزال، رغم التطوّر الذي عرفته في الوقت الراهن. بيد أنّه من شدّة ما عانت البشرية من الإقصاء ولا تزال، أنّ بدا للملاحظ البسيط وكأنّه ظاهرة كونية أزليّة وأنّ تاريخ البشرية عموماً ما هو إلّا إقصاءات متتالية ولكن بأشكال وتعابير وسلوكات مختلفة لا غير.

وقد دفع استفحال الإقصاء حديثاً "ميشال فوكو" - الذي تُعتبر كتاباته تأريخاً أركيولوجياً للظاهرة - إلى القول بـ "إنّ تحليلات تلك الفترة حول الخفايا الغامضة، لم تكن تقصده (الإنسان)، لقد كان الناس قائمين هناك لكن الإنسان لم يكن موضوع تفكير: فهو مُقصى من المجال المرئي وبالتالي فهو مُقصى من كلّ نظرية" (ميشال فوكو، ١٩٧١م، صفحة ٤٦).

كما صار الإقصاء في العصر الحديث مرادفاً للاختلاف على مستوى التفكير والتعبير؛ وذلك "منذ اللحظة الديكارتيّة، التي فصلت مجال العقل باعتباره مجال الحقيقة عن مجال الجنون باعتباره مجال الخطأ؛ أصبح الجنون بلا لغة مادامت اللّغة نابعة من العقل؛ إذ كيف يمكن للجنون أن تكون له لغة، مادامت الحقيقة نابعة من العقل" (الزواوي بغورة، ٢٠٠٠م، صفحة ٣٢).

وتتفاوت مظاهر الإقصاء بتفاوت نسب نموّ المجتمعات ثقافياً؛ فمظاهره في المجتمعات المتقدّمة ليست هي ذاتها في مجتمعات دول العالم الثالث؛ أين تتراوح بين الإبادة والتطهير العرقي على مستوى الخطاب السياسي وبين العزل وتقييد الحريّات على مستوى الخطاب القانوني وبين بعض الممارسات التي تُظهر كراهيةً للغرباء في أكثر أشكالها تطرفاً على مستوى الخطاب الاجتماعي، وبين تضيق أبواب العيش على الأفراد أو العائلات على مستوى الخطاب الاقتصادي (أديتيا أنوبكومار، د/تا، صفحة ١٤٢).

والطريف في مسألة الإقصاء هو أنّ الغرب تأخّر في دراسته للظاهرة (Jordi Estivell, ٢٠١٨, p ٥٦) إذ لم يظهر المصطلح كمجال جدير بالدراسة هناك إلّا في سبعينيات القرن الماضي؛ حيث صار يصفّ في دراسات الغرب الاجتماعيّة أفعال المجتمعات البشرية أو ميولها الصريحة للتخلّص من غير المرغوب فيهم أو الذين تراهم بلا جدوى أو يُشكّلون خطراً عليها (أديتيا أنوبكومار، د/تا، صفحة ١٤٣).

أمّا في علم النفس، فالإقصاء أو الإزاحة (Displacement)، يعني في نظرية "سيغموند فرويد" إحدى ميكانيزمات الدفاع التي يلجأ إليها بعض الأشخاص المرضى للتخلّص ممّن يسبّبون لهم قلقاً ويكون ذلك بتشويههم أو تحويلهم إلى صورة مشوّهة (باربرا إنجلر، ١٩٩١م، صفحة ٤٤٩).

أما على مستوى الدراسات الأدبية، فيُعدّ الإقصاء أو الإبعاد *éloignement* وظيفة من الوظائف الفارقة في مورفولوجيا السرد (فلاديمير بروب، ١٩٩٦م، صفحة ٤٣)؛ حيث يتعدى البطل أو يُبعد بشكل من الأشكال بعد الوضعية السردية البدئية مباشرة. بيد أنّ الميثولوجيين يعتبرون الأدب التخيلي برمته "أساطير مُزاحة عن معناها الأصلي (غراهام هو، ١٩٧٣م، صفحة ٧٣ وما تلاها)".

والجدير بالذكر هو أنّ "الشكلانيين الروس" يعتبرون الإقصاء من صميم "الشعرية" التي تقوم لديهم على عنصر الإزاحة (أحمد محمد ويس، ٢٠٠٥م، صفحة ٥٧)؛ وذلك بإبعاد الخطاب عن طُرُق العرض المعتادة ونزع المألوفية عنه فيحدث ما يُسمّى بالتغريب *Défamiliarization*، الذي يجعل المألوف غريبا عبر إعاقه طرق الإدراك الآلية الاعتيادية (جيرالد بيرنس، ٢٠٠٣م، صفحة ٤٢).

وعطفًا على ما سبق - وبعبدا عن الأحكام المسبقة- فإنّ هذا البحث يفترض أنّ الإقصاء وارد في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية؛ بل أنّه يفترض أنّ الإقصاء هو الناظم لمختلف برامجها السردية. فانطلاقا من النصوص الموازية ووصولاً إلى النصوص الرئيسة، يبدو أنّ الروائيين راهنوا على كتابة الإبعاد والإزاحة والإقصاء الذي عاشته الجزائر وشعبها خلال مراحل تاريخها الحديث والمعاصر بأشكال متعدّدة وعلى أصعدة ومستويات مختلفة سنتطرق لبعضها بالتفصيل بعد الفقرة الآتية.

كما يفترض البحث، أنّ الروائيين الجزائريين لم يطمحوا من وراء كتابتهم للإقصاء إلى عكس واقع ما أو نقل تجربة مُعاشة بطلها الإقصاء؛ بل يفترض أنّ مطمحهم من وراء كتابتهم له كان كتابة أنساق أخرى لولا أنّها مُعارضة له وأكثر رسوخا منه في الواقع الروائي غير أنّها مُضمرة ومغيبّة أو مقموعة كالحرية والمواطنة والاندماج والعدالة ...

II. أشكال الإقصاء في الرواية الجزائرية:

درج بعض دارسي الرواية الجزائرية إلى التأريخ لها تأريخا يعتمد على التحقيق الزمني بناءً على ما عرفته كلّ حقبة من أحداث سياسية مهيمنة في المقام الأول، أو بالاعتماد على الموضوعات الروائية الطاغية المواكبة لحركية اجتماعية معيّنة، أو بالاعتماد على طرائق وأساليب الكتابة الروائية ذات الهاجس الإبداعي المشترك بينهما مُختلفت الحقب والموضوعات.

ودرج البعض الآخر على التأريخ للرواية الجزائرية بتقسيمها إلى أطوار؛ معتمدين في ذلك على مبدأ السابق فاللاحق، فقسّموها إلى روايات طور النشأة والتأسيس وروايات طور التأصيل وروايات طور التجريب. وهي مساعي بحثية حميدة ومهمّة لأجرأة دراسة الرواية الجزائرية؛ التي بلغ عددها إلى غاية ٢٠١٥م خمسمائة وسبعين رواية (٥٧٠) وبلغ عدد كتاباتها وكتابتها مائتين وستة وأربعين روائي وروائية (٢٤٦) خلال العام ذاته (شريف بموسى عبد القادر، ٢٠١٧م، الجزء ١، صفحة ٥٨).

ولأنّ هذا البحث يعتقد أنّ البشرية عرفت الإقصاء منذ وجد الإنسان على وجه البسيطة، فإنّ انخراط الفنّ الروائي عموما في عملية التعبير عنه أمر ثابت لا محالة وهذا يعني أنّ الالتقاء به في الرواية الجزائرية أمر ممكن لأي باحث؛ وذلك سواء بحث عنه في روايات طور النشأة أو في روايات طور التأسيس أو بحث عنه في روايات طور

التجريب؛ لولا أنه يتمظهر فيها جميعا بأشكال مختلفة نظرا لاختلاف المحرك الأساسي لأحداثه في روايات كل طور واختلاف الحركة الاجتماعية المنتجة له بين هذا الطور أو ذاك وتباين الوعي الفكري والفني الناظم له عند الكتّاب والمتلقين على حدّ سواء. ولعلّ من أبرز أشكال الإقصاء في الرواية الجزائرية ما يأتي:

١. الإقصاء الحضاري:

لا يخرج هذا الشكل من أشكال الإقصاء عن إطار علاقة الأنا الجزائري بالآخر الأجنبي عبر التاريخ، وما نتج عنها من صراع حضاري عاشه المجتمع الجزائري وانخرط فيه روائيه منذ طور النشأة وإلى غاية اليوم بأشكال وأساليب مختلفة، تُبرز مدى وعيهم - ولو بشكل نسبي - بمتانة العلاقة بين السرد والتاريخي بشكل خاص وبين السرد والحضاري بشكل عام.

ويمكن أن نفهم المقصود بهذا النوع من الإقصاء، من خلال محركات الأحداث في الروايات ومن خلال المحمولات الفكرية والنفسية لشخصوها، كما يمكن أن نفهمه من الرسائل التي يريد الروائيون الجزائريون إيصالها إلى الملتقى؛ وهي رسائل مفادها أنّ أطرافاً تهدد الكيان الثقافي للمجتمع الجزائري وتريد هدم ثوابته الحضارية من دين ولغة وتاريخ وقيم وعادات ومؤسّسات ثقافية، وذلك بهدف إزاحته عن دوره الحضاري الذي سطره له التاريخ ورسمته له الأقدار لتسهيل عليهم عملية استغلاله في النهاية.

وتنوّع الأطراف المحركة لفعل الإقصاء الحضاري في الروايات إلى طرفين اثنين قاسمهما المشترك استغلال هشاشة المجتمعات الروائية اقتصاديا وثقافيا لتمرير مشاريعهما الإقصائية؛ أحدهما داخلي أولغارشي متدنّز بالعود الاقتصاديّة الزائفة أو ظلامي انتهازي متدنّز بأفئدة دينية أو بعادات وتقاليد بالية، والآخر خارجي كولونيالي امبريالي استعمر الجزائر ردحا من الزمن وعمل بقوة الحديد والنار على إقصاء شعبها عن ركب الحضارة الإنسانية.

غير أنه مهما تباينت برامج الإقصاء في الروايات وتنوّعت الأطراف المحركة لمختلف برامج السردية بين داخلية وخارجية، فإنّ رهانها جميعا يظلّ واحدا، وهو هدم الثوابت الحضارية للمجتمع الجزائري وتعطيل مقدّراته الذاتية والموضوعية عن مواكبة ركب الحضارة وإعاقته عن تأدية الرسالة التي تُخلق من أجلها.

وقد استغلت الرواية الجزائرية منذ طور النشأة وإلى الآن انفتاح الفنّ الروائي واتّساعه لتعدّد الأصوات والرؤى للتعبير عن الإقصاء الحضاري الذي كانت أطرافه الفاعلة خارجية وضحاياها من الجزائريين؛ وذلك سواء أكان مركز الإقصاء وفضاء حدوثه الداخل والوطن أو كان مركزه الخارج وبلاد الآخر؛ الذي تحوّل لأسباب عديدة إلى بلاد غربة ولجوء للجزائريين ولكن عوض أن يُدججهم الخارج/ الآخر ويتفاعل معهم، فضّل رفضهم وعمل على إبعادهم وإقصائهم من منطق حضاري بالأساس.

ومن بين الروايات الجزائرية التي صوّرت هذا النوع من الإقصاء، نذكر على سبيل المثال لا الحصر، رواية "صوت الكهف" لـ "عبد الملك مرتاض" ورواية "اللاز" لـ "الطاهر وطار" ورواية "ريح الجنوب" لـ "عبد الحميد بن هدوقة" ورواية "ما لا تذروه الرياح" لـ "عبد العالي عرعار" ورواية "فضل الليل على النهار" لـ "ياسمين خضرا" ورواية "الديوان الإسبرطي"

لـ"عبد الوهاب عيساوي" ورواية "الأمير، مسالك أبواب الحديد" لـ"واسيني الأعرج" وجلّ روايات "أحلام مستغانمي" تقريبا.

ولعلّ من أبرز روايات طور النشأة التي عبّرت عن الإقصاء الحضاري الذي مورس ببشاعة على الجزائريين من الخارج، رواية "نار ونور" لـ"عبد الملك مرتاض" (طبعة، ٢٠٠١م)؛ التي وإن صدرت سنة ١٩٧٥م، أي بعد الاستقلال، إلّا أنّ أحداثها دارت خلال فترة ثورة التحرير؛ حيث أوكل الكاتب مهمّة تحريك أحداث الرواية إلى مجموعة من الشباب المعتزّ بهويته وحضارته والرافض لإقصاء الجزائر عن دورها الحضاري.

وقد عبّر "سعيد" وهو الشخصية الرئيسة في الرواية عن ذلك الاعتزاز وعن أزوف حقبة الإقصاء الحضاري الذي مارسه الاستعمار الفرنسي على الشعب الجزائري لأزيد من قرن من الزمن، حين انتفض في وجه الضابط الفرنسي قائلا: "أؤكد لكم يا سيادة الضابط الشهم إنني إن قُتلت اليوم فلن أقتل وأنا أدافع عن كرامة فرنسا كما فعل أبي وإنما سأقتل دفاعا عن الجزائر، فقد آن للجزائريين أن يموتوا من أجل جزائرهم" (الرواية، صفحة ٩٦).

ولم يكتف الكاتب بإبراز موقفه من الإقصاء الحضاري بل صوّر أشرس أدواته ألا وهي كتائب المظليين؛ وهي "من أضرى كتائب الجيش الاستعماري كانت تتألف من رجال المظلات. ويا للمظليين الاستعماريين في الجزائر وما ارتكبه من جرائم وما اقترفوا من آثام، وما ذبحوا من أطفال، وما استحيوا من نساء، وما مثّلوا به من رجال وما قطعوا من أشجار، وما هدموا من منازل مساجد" (الرواية، صفحة ٧٢).

وبالإضافة إلى تعبير الكاتب عن موقفه من الأحداث في الرواية وتصويره لأدوات الإقصاء الحضاري، لم يغفل عن تصوير الطبيعة الإقصائية الشنيعة للمستعمر؛ فهو نجّم "تكالب على أرضنا الطاهرة وداس كرامتها بأرجله العرجاء. وقد غرى بها فيما غرى به من شعوب، حتى أذاقها من الويلات ألوانا، ومن الحسرات أنواعا ومن النكبات ضروبا، ومن البؤس والعذاب صنوفا" (الرواية، ص ٤٢).

ولتصوير الطبيعة البشعة للإقصاء الحضاري الذي مارسه الغزاة على الجزائريين خلال فترة الاحتلال، استغلت الرواية ما يتيح الفّن الروائي من إمكانات فنية لعرض الحوار الذي دار بين "سعيد" و"خاله"؛ الذي وصف بعدهم عن كلّ ما هو إنساني وحضاري بقوله: "هؤلاء المستعمرون يا سعيد، لا يمثلون الإنسان في قليل أو في كثير والإنسان في مختلف أطواره منهم براء (...) إنّ هذا الجيش الغازي لا يمثل في حقيقة الأمر إلّا وحوشا ضارية إن لم تبادرها بالقتل افترستك بلا رحمة" (الرواية، صفحة ٤٨).

بيد أنّ الاستعمار الذي اكنّوا الجزائر بناره كان حضاريا بالأساس؛ لأنّه خطّته من الوهلة الأولى كانت استغلال مقدّرات الجزائريين لتسهيل عليه عمليّة إزاحتهم عن تاريخهم الحضاري المشعّ بنور العلم قبل احتلاله لهم ولذلك عمل على تجهيل الشعب دون رحمة أو شفقة بعد أن كان عالما وعمل على تجويعه بعد أن كان مكتفيا بذاته فقد "ملأ الجزائر ظلاما، وقد حكم عليها بالجهل وكانت عالمة موفورة العلم والعرفان، وقد جوّعها وكانت شبعى تكاد تكتظّ من الشبع" (الرواية، صفحة ٤٢).

٢. الإقصاء السياسي:

لا يخرج هذا النوع من الإقصاء عن إطار الفهم الخاطئ لمسألة الحكامة والمواطنة في دول العالم الثالث ومنها الجزائر طبعاً، وما نتج عنه من سياسات خاطئة مارستها الحكومات أو المؤسسات الحكومية أقلّ ما يُقال عنها أنّها سياسات تتّصف بالتمييز السياسي وباستبعاد فئة أو فئات ما من المشاركة في العملية السياسية أو من تقديم الخدمات، وذلك نتيجة التعصّب الحزبي أو الفساد بأنواعه المختلفة ممّا أثر على حقوق المواطنين ومشاركتهم في الحياة السياسية وتسيير الشأن العام.

وإذا كانت أدوات الإقصاء الحضاري هي السلوكات الخاطئة كالعنصرية والانتهازية والتحيز العرقي والثنائي فإنّ الإقصاء السياسي يُنتج عن التعصّب السياسي والفساد بأنواعه المختلفة والحكومة الفاشلة والمواطنة المغشوشة وهو الأمر الذي يؤدي إلى استبعاد شخص أو فئة أو أقلية معينة من المشاركة في الحياة السياسية أو الإسهام في تقديم الخدمات العامة. وقد تناولت روايات جزائرية كثيرة هذا النوع من الإقصاء، وذلك منذ طور النشأة ووصولاً إلى طور التجريب الروائي؛ معبرة بذلك عن انخراط أصحابها معرفياً وفنياً في السجال السياسي الدائر في الجزائر منذ الاستقلال وإلى الآن.

غير أنّي اعتقد أنّ رواية "حارسه الظلال دون كيشوت في الجزائر" لـ "واسيني الأعرج" (طبعة، ٢٠٠٦م)، من أبرز الروايات الجزائرية التي تناولت الإقصاء السياسي بوعي معرفي وآخر فنيّ جديرين كليهما بالاحترام؛ إلى درجة أنّه إذا جاز لي أن أعطيها عنواناً آخر غير الذي هي عليه، فإنّني أسمّيها رواية (الإقصاء السياسي العجيب في الجزائر). فقد جمعت رواية "حارسه الظلال" كلّ أنواع الإقصاء السياسي التي يمكن أن يُبتلى بها بلد انفتح حديثاً على الديمقراطية. وذلك بدءاً بغياب المواطنة وما ينجّر عنه من إقصاء للآخر ثمّ التعصّب السياسي وما ينجّر عنه من إقصاء للتعديّة في الرأي ثمّ الفساد الإداري والمالي والمحسوبية والولاءات الضيقة وتحييد الكفاءات؛ وما ينجّر عنهم جميعاً من إقصاء للعدالة ومبدأ تكافؤ الفرص، وصولاً إلى الإرهاب والتصفية الجسدية؛ كخيارات إقصائية متطرفة لا تكفي بإقصاء الآخر فحسب، وإنّما تسعى جاهدة للتخلّص منه وتحييده نهائياً.

ولتشكيل عالم الإقصاء السياسي في جزائر الانفتاح الديمقراطي روائياً؛ حيث "المرء ليس مجبراً على احترام السياسة حتى يُقتل، يكفي أن تفكّر بشكل مخالف" (الرواية، صفحة ٣٧)، استغلّ "واسيني" وعيه المعرفي بالحقل السياسي الجزائري آنذاك، كما استغلّ ما يتيح له الفنّ الروائي من أدوات فنية ليتمكّن في الأخير من تشكيل عالم روائيّ بوجهين بطله الإقصاء..

فعالم الرواية قيد الدرس يتشكّل في الحقيقة من وجهين: أحدهما عجائبي تجسّده "حارسه الضلال" "الضائعة في سراديب مدينة بلا روح" (الرواية، صفحة ٢١٨)، والآخر "واقعي" تجسّده جزائر الانفتاح الديمقراطي وما تبع ذلك الانفتاح من أحداث مأساوية؛ ممثلة في شخصية "حسيسن" المثقّف والصحفي الذي أدرك تحت وطأة الإقصاء الذي عاشه، بأنّ الحياة في الجزائر "بجزّء خواء لا أكثر" (الرواية، صفحة ١٥)، وأنّ "ال...ج...زا...ئ الجزائر مدينة اللامعنى العظيمة" (الرواية، صفحة ١٣).

والمتعمّن في عالم الرواية بوجهيه (العجائبي والواقعي)، يمكنه أن يلاحظ أنّهما على الرغم من أنّ لكلّ وجه منهما رهانه الروائي الخاصّ ولغته الخاصّة وبرنامجه السردى الخاصّ أيضا، إلّا أنّهما يشتركان في تجسيد موضوع واحد ألا وهو الإقصاء؛ لولا أنّ الوجه الأول سياسي لارتباطه بمسائل الحكامة والمواطنة والوجه الثاني قيمي، لارتباطه بالضوابط القيمية المتحرّكة في فكر ووجدان الجزائريين عبر التاريخ.

وعليه، يمكن القول أنّ الجزائر في الرواية قيد الدرس مدينة الإقصاء بحقّ؛ فالإقصاء يأتي فيها مرادفا للامعنى وللخواء وللقتل والبتّر والفصل من العمل، وكلّ ذلك نتيجة الحكامة الفاسدة التي أقصت كلّ الأطراف التي - ويا للعجب - تفانت في خدمة وطنها فأصبحت جميعها بلا معنى ومعزولة ومقصاة.

ومن الشخصيات المقصاة عن تأدية الخدمات في الرواية نجد "عمّي مختار"؛ "الذي طحنته كلّ حروب الأزمنة الحديثة وعندما وقف عند بوابات الوزارة الخشنة يستجدي عودته إلى العمل الذي أجبر على تركه بسبب التقاعد المسبق الذي فُرض عليه (...) صرخ طويلا بدون جدوى (...) لا أريد أن أتقاعد (...) لكن السي وهيب الصلب مثل الخواء وأحجار الوديان الميتة، لا يتراجع أبدا عن قراراته" (الرواية، صفحة ١٤).

ولعلّ أشبع إقصاء في الرواية هو ما تعرّضت له "السيدة عائشة"؛ التي "لم تكن أكثر من إطار بسيط في الولاية. جريمته الكبرى أنّها امرأة لم تكن ترى معنى للحياة إلّا في عملها" (الرواية، صفحة ٣٩)، ولكنها رغم ذلك "أُغتيلت ذبحا أمام بناتها الثلاثة" (الرواية، صفحة ٣٨) من طرف مجموعة إرهابية يرى قادتها أنّه "لا وجود للديمقراطية فالمصدر الوحيد للتشريع والحكم هو الله ومن خلال القرآن وليس الشعب" (الرواية، صفحة ٣٩).

وتبقى شخصية "حسيسن" وهو الصحفي والمستشار المكلف بالعلاقات الجزائرية - الأسبانية أبرز من يمثّل الإقصاء بأنواعه المختلفة في الرواية؛ بدءا بعزله عن عمله إذ يقول: "لقد عُزلت وانتهى كلّ شيء" (الرواية، صفحة ١٨)، ذلك رغم أنّه أجهّد نفسه كثيرا ليكون مواطنا صالحا ولكنه فشل وصار بدل ذلك "منحدر المظالم" و"ابن اللاشيء" و"المنبوذ" و"الخائن لوطنه"؛ بسبب توريطه في قضية أمن دولة من طرف العصابات الحاكمة في الجزائر خلال تسعينيات القرن الماضي؛ التي يُرمز لها في الرواية بـ "عائلة الخضر"، المشكّلة من "سلالات الأخطبوط التي تمتلك آلاف الأذرع" (الرواية، صفحة ١٩).

وتتعمّق الرواية في تفكيك بنية الإقصاء حين تصوّر السلطة السياسية الحاكمة في جزائر الانفتاح الديمقراطي التي استطاعت بـ "بلاغتها الرديئة التي تتخبّأ وراءها ثقافة هزيلة، ثقافة البؤس والنفاق والحقد والكرهية (...) أن تخلق مجتمع الفساد والغش" (الرواية، صفحة ٢٥٣)، وأن تبتكر في البلد فئة من *intouchables* Les التي كان دورها "تخبئة أموال الدولة التي تُخبّت" (الرواية، صفحة ٢٥٠).

ولكي تُخفي السلطة السياسية في الرواية جرائمها، أعلم الوزير "حسيسن"، "بأنّه تمّ طردهم بسبب عدم الكفاءة في تسيير شؤون الاختصاص والمسّ بأمن الدولة" (الرواية، صفحة ٢٥٧)، وعندما تجاسر وحاول فضح المستور وإعلام الرأي العام بالحقائق، تعرّض "حسيسن" لإقصاء لا يقلّ بشاعة عن قطع مصدر رزقه؛ فقد "كانت هي الإشارة التي دلّت القتل الذي قطعوا لساني وذكرني" (الرواية، صفحة ٢٥٨).

إنّ قطع لسان "حسيّسن" في الحقيقة، إقصاء له عن عالم الناطقين بفضاعة المشهد السياسي في جزائر الانفتاح الديمقراطي وأما بتر ذكره فهو إقصاء له من عالم اللذة ونعمة تخليد اسمه كبقية الرجال، وها هو "حسيّسن" يعيش في عالم الصمت خائفاً على أصدقائه من وعيد اختطافهم هم أيضاً لو تجاسر وصرّح بالحقائق ثانية، لذلك "وعد الملتّمين الذين اختطفوه بأن لا يذكر شيئاً ممّا حدث له" (الرواية، صفحة ١٥).

٣. الإقصاء الاجتماعي:

إذا كان الإقصاء السياسي يرتبط بالحكومة الفاسدة والمواطنة المزيفة وما ينتج عنهما من تعصّب حزبي وخراب إداري وتجاوزات سياسيّة تنتهي بإقصاء شخص أو فئة أو طبقة أو أقلّيّة عن المشاركة في نشاطات الحياة العامّة للمجتمع، فإنّ الإقصاء الاجتماعي يرتبط أساساً بالتمييز بين شخص أو فئة أو طبقة أو أقلّيّة وبين غيرها ولكن على أساس ثقافي أو اجتماعي أو جنسدي.

ويُنتج الإقصاء الاجتماعي في الغالب عن التمييز الاجتماعي ويُطلق عليه في علم الاجتماع عدّة أسماء كـ "التعصّب الثقافي" أو "الطبقيّة" أو "العرقية"؛ وتعني مجتمعة: إقصاء ثقافة شخص أو فئة أو طبقة أو أقلّيّة معيّنة من المشاركة في الحياة الاجتماعيّة بناءً على خلفيتهم الثقافيّة أو الفنيّة أو الجنسيّة؛ ممّا ينعكس سلباً على قيم المساواة والعدالة وعلى حقوق الأفراد في الوصول إلى الفرص الثقافيّة والاجتماعيّة بشكل عامّ.

وقد انخرطت الرواية الجزائرية منذ مرحلة النشأة في أتون الصراع الاجتماعي الدائر في الجزائر؛ فصوّرت حياة الجزائريين الاجتماعيّة خلال الفترة الاستعمارية وذلك من خلال شخصيات فنيّة تكابد الاضطهاد وتعيش التهميش الاجتماعي والثقافي والعنصري. كما صوّرت حياة ذات الشعب ولكن خلال فترة الاستقلال وذلك من خلال شخصيات تكابد تحدّيات اجتماعيّة وثقافيّة وجنسديّة وفنيّة.

ولعلّ من أبرز التحديّات الاجتماعيّة التي صوّرتها الرواية الجزائرية خلال فترة الاستقلال وما بعده، تحدّي توفير الحدّ الأدنى من العيش الكريم؛ ضفّ إليه تحدّيات العنف والإرهاب والتطرّف الديني والتجنيد القسري والانزواء الاجتماعي وعدم الاستقرار العاطفي والجنسديّة والمحسوبيّة والتعصّب الثقافي وتغييب دولة القانون وعدم تكافؤ الفرص؛ وهي تحدّيات أثّرت إلى حدّ بعيد على مسألة الاستقرار والأمن الاجتماعيين في الروايات.

واعتقد أنّ "فضيلة الفاروق"، من الروائيين الجزائريين المعاصرين الذين صوّرت رواياتهم الإقصاء الاجتماعي بوعي جدير بالاهتمام. بيد أنّها كرّست كتابتها الروائيّة تقريباً، للتعبير عن الإقصاء بمختلف أنواعه وخاصّة في روايتها "تاء الخجل" (فضيلة الفاروق، ٢٠٠٣م)؛ التي كتبتها في فترة الحرب الأهليّة التي عاشتها الجزائر مؤخّراً.

لقد استطاعت "الفاروق" عبر صفحات روايتها القليلة نسبياً، إيصال رسالتها القويّة وتبليغ موقفها المؤثّر إلى القارئ، وذلك من خلال تسليط الضوء على تحدّيات اجتماعيّة كثيرة وعميقة يعيشها المجتمع ولا يزال؛ كالسلطة الذكوريّة والنظرة الدونيّة للمرأة والقيود الاجتماعيّة والثقافيّة المفروضة عليها وما تتعرّض له من عنف واغتصاب؛ دون أن تغفل عن تصوير انعكاس كلّ ذلك على تقدّم المجتمع الروائي وأمنه واستقراره.

وقد أدّى تعاضد الجانبين المعرفي والفني في رواية "تاء الخجل" إلى تقديم عالم سردي متماسك إلى أبعد الحدود؛ فالرواية لم تكن إلى سرد حكاية الإقصاء الاجتماعي بشكل سطحي يفتقر إلى الدليل المعرفي الموضح لخلفياته ومرجعياته الفكرية والثقافية، إنما سردها بوعي معرفي من خلال عرض أدوات الهيمنة الذكورية ووسائل الإقصاء الاجتماعي للمرأة في المجتمع الجزائري الحديث والمعاصر دون إغفال تحليل كلّ أداة وتقديم موقفها منها. ولعلّ من أبرز أدوات الإقصاء في الرواية ما يأتي:

٣. ١. العادات والتقاليد:

تُعتبر العادات والتقاليد بما تمتلكه من سلطة أداة ثقافية فعالة لتمرير أي مشروع اجتماعي حتى ولو كان إقصائياً. ولم تتوان الرواية الجزائرية منذ أول رواية في تاريخها عن تسليط الضوء على هذه الأداة وتصوير قدراتها الكبيرة على تنفيذ مشاريع ومخططات الإقصاء الاجتماعي أو تثبيت سُلط الهيمنة الاجتماعية المختلفة. والمتتبع لسردية المجتمع في رواية "تاء الخجل"، يرى أنه مجتمع موحد على مستوى السطح؛ نظراً للروابط الكثيرة التي تجمع بين أفرادها؛ كالقربة واللغة والوطن، غير أنّ المتفحص للمجتمع ذاته على مستوى البنية العميقة يمكنه رؤية أنّه منقسم إلى مجتمعين: أحدهما للذكور يتميز بالهيمنة وآخر للإناث يلقه الخجل وتقتله "الحشمة".

وخجل المرأة في "تاء الخجل" ليس خجلاً عابراً أو بسيطاً في الحقيقة، وإنما هو إقصاء شنيع؛ بل إنّه حالة مرضية تُسمّى في علم الاجتماع "الرهاب الاجتماعي"؛ وهو مزيج من الخوف الشديد والتوتر الذي ينتج عن الشعور بالإحراج الشديد من مخالفة سلطة ما خفية أو ظاهرة، تضغط على المرأة وتمنعها من إطلاق الأحكام أو المشاركة في المواقف الاجتماعية، ممّا يؤلّد عندها حالة من الخجل الاجتماعي الذي يتطور في الحالات الاجتماعية الحادة ليصبح آلية دفاعية للحفاظ عن النفس لا غير.

وقد استطاعت "الفاروق" أن ترسم في روايتها قدرة التقاليد على تمرير أي مشروع إقصائي تُجاه أي عنصر اجتماعي لا ترغب السلطة الذكورية المهيمنة في اعتناقه أو تطوّره؛ فالتقاليد هي التي كرّست النظرة الدونية للمرأة (الرواية، صفحة ١١)، وهي التي أباحت للزوج تطليق زوجته التي لا تُحب الذكور (الرواية، صفحة ٢٠)، وهي التي برّرت تجهيلها وإقصائها من عالم السياسة ليبقى حكراً على الذكور (الرواية، صفحة ٦٨)، وهي التي فرضت على البنت "التصفيح" (الرواية، صفحة ٢٦) لتحمي عذريتها حفاظاً على هيبة وشرف الذكورية الاجتماعية.

ولتصوير سطوة التقاليد وقدرتها على ممارسة الإقصاء الاجتماعي روائياً، لم تلجأ الكاتبة إلى التصادم معها عبر أساليب البوح أو الحوار العلنيين رغم ما يتيحانه لها من قدرات سردية على فضحها أو الثورة عليها، وإنما استعملت تقنية "حديث النفس للنفس" أو "المونولوج" لا غير (الرواية، صفحة ٥٣)؛ تعبيراً عن استفحال تقاليد الجندرية في المجتمع وعجز الأنثى عن مجابهتها؛ "إذّ علينا نحن النساء أن ننتظر عودة الرجال من المسجد وبعد أن ينتهوا من تناول الغداء، يأتي دورنا نحن النساء؛ كلّاً جميعاً نجتمع عند العمّة تونس وكنت أكره ذلك التقليد الذي يجعل منّا قطيعاً من الدرجة الثانية" (الرواية، صفحة ٢٤).

٣. ٢. الدين السياسي:

رغم أنّ الدين الإسلامي يدعو إلى المساواة بين أفراد المجتمع ويحثّ على تكريم المرأة وحفظ إنسانيتها وعدم إقصائها من أيّ موقف كان، إلّا أنّ رواية "تاء الخجل" تسرد في جزئها الخامس، فهُما آخر للدين عاشه المجتمع الجزائري في فترة عصيبة من تاريخه السياسي، حيث أصبح - بحسب جماعة الإنقاذ - مجرد أداة سياسية للإذلال والإقصاء؛ بيد أنّ الدين في نظرهم يصلح أن يكون أداة من أدوات الكارثة (الرواية، صفحة ٥١).

فقد أغفل المصلّون في مجتمع النصّ الروائي كلّ الروابط الاجتماعية التي تربط بينهم وراحوا يكرّون خلف الإمام دون أدنى تفكير دعاءه لله أن "يُرَيَّ" بنات من يعارض أفكار الجبهة الإسلامية للإنقاذ و"أن ييتم أولادهم" و"أن يُرْمَل نساءهم" (الرواية، صفحة ٥٣)؛ وكأنّ البنات في نظر هذا التيار السياسي، بنات كفار ولسن من المسلمين وبالتالي يجوز إقصاءهن من المجتمع ونزع شرفهنّ والتنكيل بهنّ اجتماعيًا من أجل الوصول إلى السلطة.

إنّ الرجال المتسترين خلف الدين في رواية "تاء الخجل"، لهم وحدهم الحقّ في إقصاء أو إدماج من يشاءون من النساء في الحياة العامة، ولهم وحدهم الحقّ في اغتصاب ونكران وتعويض من يشاءون منهن دون حسيب أو رقيب؛ هذا لأنّ أدوات الإقصاء والدمج والنكران والاعتصاب أتاحها الدين لهم وحدهم؛ بل إنهم "يُفَصِّلون الإسلام على أذواقهم" (الرواية، صفحة ٥٥)، لتبقى النساء في النصّ وحدهن يعانين العارّ والانتهاك والتشردّ والدعارة والانتحار والعنف والاعتصاب (الرواية، صفحة ٥٦).

٣.٣. الاعتصاب والعنف:

صوّرت رواية "تاء الخجل" النظرة الدنيّة للمرأة بوعي جدير بالاحترام؛ وهي نظرة ترتبط في الرواية بتقليد الشرف الذي يفرض على الذكور الحدّ من حركة الإناث وتضييق مجال تفكيرهن لكي لا يُمسّ الشرف العائلي بسوء، فتكون عواقب ذلك وخيمة على الصعيد الاجتماعي (الرواية، الصفحات: ١ - ٢٦).

وقد نجم عن النظرة الدنيّة للأُنثى من طرف المجتمع الذكوري وضعها بين فكيّ كماشة في الرواية؛ فكّ اسمه الاعتصاب وفكّ لا يختلف عنه كثيرا اسمه العنف؛ وهما أداتان من أبشع أدوات الإقصاء التي استعملهما الذكور لإقصاء المرأة وفرض هيمنتهم عليها في النصّ. والحقيقة أنّ الكاتبة تناولتهما في روايتها بجرأة أدبيّة يندر أن نجد لها لدى غيرها؛ سواء على المستوى المحلي أو العربي.

وقد طال الإقصاء بواسطة الاعتصاب آلاف النساء بحسب الشخصية الرئيسة في نصّ "تاء الخجل". ومن بين الشخصيات المقصيّة بواسطة الاعتصاب، نجد "رزقة" (الرواية، صفحة ٤٨) و"يمينة" (الرواية، صفحة ٥٣) و"رواية" (الرواية، صفحة ٥٤)؛ بيد أنّ حالة اغتصاب "رمة النجار" - الطفلة التي لم تتجاوز الثامنة من عمرها - من أبشع حالات الاعتصاب المصوّرة في الرواية.

فقوى الإقصاء في الرواية لم تكتف بسرقة عذرية الطفلة "رمة" وإنّما تعاضدت - من حيث لا تدري - فيما بينها لتقصيها من الحياة تماما؛ وذلك لما أُلقت بها من جسر سيدي مسيد؛ فقبل حينها - بتواطؤ يعسر فهمه - أنّها انتحرت، ولكن التحقيقات كشفت أنّها قُتلت بعنف شديد ودون رحمة من طرف والدها (الرواية، صفحة ٣٩)،

الذي يدل أن يتضامن مع ابنته المظلومة والمغتصبة، انتصر للتقاليد الاجتماعية البالية ووقف في صف قوى الإقصاء، حين قام بغسل "العار" و"تنقية الشرف العائلي" بيديه.

III. الأبعاد الفنية والمعرفية للإقصاء:

يبدو أن الإقصاء في الرواية الجزائرية نوعان ولكل نوع منهما طريقة معينة لدراسته ونقده: فهناك إقصاء مباشر وواضح يسهل على المتلقي التعرف عليه، لأنه يرتبط بمضامين النصوص الروائية وبالواقع الحضاري والثقافي والسوسيو-سياسي المصور فيها؛ أو قل أن هذا النوع من الإقصاء يرتبط أساسا بالحكاية التي تحكيها النصوص الروائية؛ مما يعني أن دراسته تقتضي دراسة موضوع الحكاية وزمنها ومكانها وشخصياتها وأحداثها.

وهناك إقصاء آخر خفي في النصوص يصعب على المتلقي العادي التعرف عليه، لأنه لا يضع نفسه على أسطح الروايات ولا يفهم من حكاياتها وإنما نجده على مستوى الشكل؛ أي أن مضمون هذا النوع من الإقصاء يُجسد على مستوى التقنيات السردية والأساليب الفنية التي تُصبح لدى الكاتب تعبيرا - في حد ذاتها - عن الإقصاء، ويُصبح فهمها وتحليلها من خلال دراسة البناء اللغوي وطرق تقديم ووصف الشخصيات ودراسة الزمن والمكان الروائيين وأساليب سرد الأحداث والتناصات المختلفة والتبشير، أمرا ضروريا لفهم هذا النوع من الإقصاء.

وسواء انطلقنا في دراستنا للإقصاء الروائي من الحكاية أو من شكلها، فإننا لا محالة سنقف على أبعاده الفنية والمعرفية؛ أي أنه سواء اقتصرنا على دراسة النصوص الروائية على المضامين أو على أشكال تلك المضامين، فإنه لا مناص من العثور على الإقصاء فيها، ولا مناص من العثور على أبعاده الفنية والمعرفية: وكأن الإقصاء بأبعاده المختلفة صار عنصرا قارًا وثابتا في بنية تلك النصوص.

١. الأبعاد الفنية للإقصاء:

يلعب الإقصاء دورا حاسما في تطوّر الشخصيات في النصوص الروائية عموما وفي النصوص الروائية الجزائرية بشكل خاص؛ إذ يغدو فيها أداة فنية قادرة على التعبير عن الإزاحة والتمييز والظلم والتعصب على أصعدة ومستويات مختلفة: حضارية وسياسية واجتماعية وثقافية وغيرها.

والإقصاء عنصر فني مهم في بناء سوسولوجيا الشخصيات الروائية، لأن التركيز عليه يمنح الروائيين القدرة على متابعة تطورها مما يفسح المجال أمامهم لتصوير سياقاتها الحضارية والسياسية والاجتماعية والثقافية المتألفة والمتناقضة وتشكيل سماتها النفسية والذهنية والسلوكية المتناسقة والمتصارعة؛ فيصبح الإقصاء حينها، ليس واقعا محكيًا قاسيا تعيشه الشخصيات، وإنما أداة فنية ثرة وثرية لكتابة إشكالات الواقع القاسي روائيا.

ومثلما يؤثر الإقصاء على بنية الشخصيات في النصوص، فإنه يؤثر على بنية العلاقات فيما بينها وعلى صناعة قراراتها ومواقفها أيضا، كما يؤثر حضوره أو غيابه فيها، على القصة وعلى البنية السردية وعلى أنماط السرد ولغة السرد كذلك.

بيد أن تأثير الإقصاء لاحظناه يطال في النصوص الروائية منطاد الدرس بنية عنصري الزمن والمكان الروائيين أيضا؛ فهناك نصوص يحضر فيها الزمن الحاضر بكثافة ويُقصى منها الماضي والمستقبل والعكس، وهناك نصوص تحضر

فيها المدينة ويُقصى منها الريف والعكس؛ فيصبح دور الناقد هنا، هو البحث عن بنية هذا النوع من الإقصاء الزمكاني واستقصاء دلالاته السوسيونصية.

٢. الأبعاد المعرفية للإقصاء:

إنّ العلاقة بين الوعي المعرفي والكتابة الروائية علاقة جدلية بحيث يمدّ الحقل المعرفي الكتابة الروائية الأفكار والمعارف والمعلومات والحقائق العلمية وتمدّ الكتابة الروائية الحقل المعرفي الأفكار والمعارف والمعلومات أيضا؛ بيد أنّ الرواية تمنح الحقل المعرفي فضاءات شاسعة لا يمكنه أن يجدها لدى غيرها من الفنون والعلوم لاختبار مختلف الأفكار والمعارف والحقائق العلمية التي يطرحها.

ومثلما تمارس الأبعاد الفنية في الرواية سلطة ما على المتلقي، يجوز أن نُطلق عليها اسم السلطة الفنية للرواية، فإنّ الأفكار والمعارف والمعلومات المنتقاة في الرواية حول موضوع ما، تمارس سلطتها على المتلقي هي الأخرى، ويجوز أن نُطلق عليها اسم السلطة المعرفية للرواية. وهي سلطة اعتبارية مهمة، لأنّها تُعطي الروائي مساحات شاسعة لتطوير شخصياته وتطوير حبكة السردية.

بيد أنّ الأبعاد المعرفية في النصوص الروائية تراهن على ذهن المتلقي وقناعاته بالأساس ليصبح المقياس الذي يُقاس به مقبولية هذا العمل أو ذاك. لأنّ الروائي لا يمكنه أن يتحقّق من مقبولية عمله الروائي إلّا بعد بلوغ أفكار ومعارف ومعلومات موضوع روايته إلى المتلقي ووصول خبرات وتجارب شخصياتها إليه والاستفادة منها بمقارنتها بمشاكله وقضاياها المجتمعية؛ بالاعتماد على وعيه طبعا.

وقد سعت مدوّنة البحث إلى تبيئة موضوع الإقصاء بمختلف أنواعه في فضاءاتها الفنية المختلفة وذلك على أصعدة ومستويات روائية عديدة؛ تحقيقا لمجموعة من الأبعاد المعرفية لدى المتلقي ولعلّ من أبرز تلك الأبعاد ما يأتي:

٢. ١. تحديد مصادر الإقصاء: لقد أتاحت النماذج المدروسة معرفة مصادر الإقصاء في مجتمعاتها الروائية؛ حيث شكّلت المعرفة والتفوق الحضاري مصدرا للتحكّم في الآخرين وإقصائهم. كما شكّل التوجّه الاجتماعي والثقافي مصدرا آخر لإقصاء الآخرين بناء على انتمائهم الثقافي والاجتماعي. وفي مواضع أخرى شكّل الجنس والهوية الجندرية مصدرا لإقصاء الآخرين بناء على جنسهم أو توجّههم الجندري.

كما لعبت الطبقة الاجتماعية والاقتصادية دورا مهما في تكريس الإقصاء؛ حيث رأينا أنّ هذا الأخير كثيرا ما يرتبط بالطبقة الاجتماعية أو بالوضع الاقتصادي؛ فيمارس الاستبعاد حينها بناء على مكانة الآخرين الاجتماعية أو مواردهم المادية. ضف إلى ذلك العرق والأصل الثقافي؛ حيث لاحظنا أن الإقصاء يرتبط بالعرق أو الأصل الثقافي فيمارس الإقصاء حينها على الآخرين بناء على أصولهم الثقافية أو العرقية.

٢. ٢. تحفيز المتلقي على أخذ موقف من الإقصاء: يجد المتلقي نفسه - في سياق الروايات المختارة - مضطرا لأخذ موقف من الإقصاء؛ وذلك بناء على مَهَّدات فنية وضعها له الروائيون لتحفيزه على الاختيار؛ وهي مَهَّدات من قبيل نقد العلاقة بين الأنا والأنا والآخر المحلي والأنا والآخر الأجنبي ونقد التراث بأشكاله المختلفة والحثّ على تحدّيه، باعتباره مسؤولا عن تكريس الإقصاء في مجتمع الروايات.

والروايات المختارة فضاءات أثيرة طرّح فيها الروائيون عديد الأسئلة المنحرفة على اتّخاذ موقف من الإقصاء؛ وهي أسئلة من قبيل: ما هو العقل وهل يجب أن يكون مقيدا بالتقاليد والمعتقدات المتوارثة أم يجب أن يكون حراً ومستقلاً ويتحلّى بالجدل والتفكير الذاتي؟ وما هي الحرية وما هي حدودها وما هي علاقتها بالحكمة الراشدة وبالمواطنة الحقّة؟ وما هي الأخلاق وهل هي المرجع الوحيد للتصرفات البشرية وكيف يمكن تحديد معايير السلوك الأخلاقي؟ وغيرها من الأسئلة ...

IV. الخاتمة:

يجدر في خاتمة هذا البحث أن نسجّل بأنّ موضوعات كثيرة يجب أن يلتفت إليها الدرس النقدي الجزائري الراهن لأنّ الالتفات إليها من شأنه أن يربط الرواية الجزائرية بالخيال المنتج لها فيفكّ عنها العزلة ويبعث فيها الروح من جديد حين يربطها بهموم الناس؛ مثل موضوع "تمجيد الشخصيات في الرواية الجزائرية بين الماضي والحاضر" وموضوع "نشأت السرد في الرواية الجزائرية" وموضوع "بنية الإقصاء في الرواية الجزائرية"؛ الذي نبّهت له هذه الدراسة على أمل التوسّع فيه لاحقاً بالتركيز على آلياته الفنية وتقنياته السردية أو مقارنة شكل حضوره بين الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية من جهة والمكتوبة باللغة الأجنبية من جهة أخرى.

وإذا كان لهذه الدراسة من فضل، فيكفيها فضلاً أنّها قاربت مفهوم الإقصاء في مجالات معرفية كثيرة بمهدف لفت الانتباه إليه ولما لا تبيّته في الدرس النقدي الجزائري، ثمّ قاربت بعض أشكال حضوره العديدة والمتعدّدة ولا مست بعض أبعاد ذلك الحضور في نصوص روائية جزائرية مكتوبة باللغة العربية وموزّعة بين أطوار الرواية الجزائرية المختلفة؛ وذلك للإشارة إلى حضور موضوع الإقصاء فيها من جهة وللإشارة من جهة أخرى إلى مشروعية دراسته وإلى مردوده على المستويين الفني والعلمي على حدّ سواء.

وقد تبين أنّ الروايات المدروسة سعت من وراء تناولها للإقصاء، أن تلفت انتباه المتلقّين إلى الصراع الحضاري الدائر بين الأنا والأنا السليبي من جهة وبين الأنا والآخر الغربي من جهة أخرى. كما سعت إلى لفت انتباه المتلقّين ذاتهم إلى الصراعين السياسي والاجتماعي الدائرين في الجزائر منذ ما قبل الاستقلال وبعده بمهدف تحديد مصادرها وتحفيز المتلقّي على أخذ موقف منهما.

- قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية ورش.

- المصادر:

١ - عبد الملك مرتاض، نار ونور، رواية، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١١م.

٢ - فضيلة الفاروق، تاء الخجل، رواية، رياض الرّيس للكتب والنشر، لبنان، ٢٠٠٣م.

٣ - واسيني الأعرج، حاررسة الظلال، دون كيشوت في الجزائر، رواية، دار ورد للنشر والطباعة، دمشق، ٢٠٠٦م.

- المراجع العربية:

- ٤- إبراهيم عبد اللطيف وعبد المطلب خوجلي، التهميش الدلالات والمضامين- قراءات مفاهيمية، المجلة الأفريقية للدراسات المتقدمة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، السودان، ٢٠٢٢م.
- ٥- أحمد محمد ويس، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠٥م.
- ٦- الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، الجزائر، ٢٠٠٠م.

- المراجع الأجنبية المترجمة إلى العربية:

- ٧- أديتيا أنوبكومار، مفهوم الإقصاء الاجتماعي وتحسين النسل، تر: بشينة إبراهيم، دار الصفاء للنشر والتوزيع الأردن، د / تا .
- ٨- باربرا إنجلر، مدخل إلى نظريات الشخصية، تر: فهد بن عبد الله بن دليم، دار الحارثي للطباعة والنشر دمشق، سوريا، ١٩٩١م.
- ٩- جيرالد بيرنس، قاموس السرديات، تر: السيد إمام، ميريت للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- ١٠- غراهام هو، مقال في النقد، تر: محي الدين صبحي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، ١٩٧٣م.
- ١١- فلاديمير بروب، مورفولوجيا القصة، تر: حسن، عبد الكريم وين عتو، سميرة، شراع للدراسات والنشر والتوزيع دمشق، سوريا، ١٩٩٦م.
- ١٢- ميشال فوكو، نظام الخطاب، تر: محمد سبيلا، دار التنوير، باريس، ١٩٧١م.
- المراجع الأجنبية:

١٣ - ESTIVILL, Jordi, ٢٠٠٤, Panorama de la lutte contre l'exclusion sociale, Bureau international du travail, Geneve

- المواقع الإلكترونية:

- ١٤- قاموس (لاروس) في محرك البحث غوغل، <https://www.larousse.fr> ، الذي عاينته يوم ٢٢/١٢/٢٠٢٣م على الساعة ٢٢، ١٨.
- ١٥- يوسف هريمة، ثقافة الإقصاء من منظور قرآني، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، مجلة، عدد ١٣ سبتمبر ٢٠٢١م، <https://www.mominoun.com/articles>، عبر محرك البحث غوغل الذي عاينته يوم ٠٤/١١/٢٠٢٣م، على الساعة ٢٠، ٢٣.

